القسم الأول

اللغة العربية ومواقف تعليمها

- مقدمة عن اللغة بعامة .
- اللغة العربية وأهميتها وتطور تعليمها .
- تدريس القصة .
- تدريس القراءة .
- تدريس الكتابة والتعبير .
- تدريس الأدب والنقد والبلاغة .
- تدريس القواعد النحوية .
- الوسائل التعليمية وتدريس اللغة العربية .
- خاتمة « أمثلة تطبيقية » .

الفصل الأول

مقدمة عن اللغة بعامة

- معنى اللغة .
- نشأتها الأولى وتشعبها إلى لغات .
- وظائف اللغة بعامة واللغة العربية بخاصة ودورها فى بناء المجتمع

معنى اللغة ونشأتها

اللغة بمعناها الواسع أداة التفاهم ووسيلة التعبير عما بالنفس بين طوائف المخلوقات . فالطيور بفصائلها المتعددة لها وسائل تعبيرية يتعارف عليها أفراد كل فصيلة ويستجيب أحدها للآخر استجابات مختلفة تبعاً لنماذج الاختلاف التى تشتمل عليها وسيلتهم فى التفاهم ونقل المعارف والمشاعر ، ألا ترى إلى بعض أنواع العصافير تصدر أصواتاً خاصة عند التجمع فيلبيها الجميع ، وأصواتاً مختلفة تستعدى بها أفراد الفصيلة على عدوداهم ، فلا يلبث المستعدى طويلا حتى يجد حوله ومعه جمعاً غفيراً من بنى جنسه ، وأصواتاً ثالثة لها سمات خاصة إذا التقى الذكر بالأنثى فيستجيب أحدهما للآخر استجابات فيها معنى الود والتعاطف والتآلف . . .وهكذا. . .» وقد توصلت مجموعة من علماء الطيور فى ألمانيا الغربية إلى وضع أول موسوعة تحتوى على ٢٥ كلمة من لغة الطيور ؛ تم تحديدها طبقاً للأصوات المختلفة التى تصدر عن كل طائر . . . وقد استخدم العلماء فى إعداد هذه الموسوعة أجهزة تسجيل حساسة.» (١)

والحيوانات بأنواعها المختلفة يتفاهم أفراد كل منها بلغة خاصة به وإن لم تكن ذات مقاطع وحروف وكلمات . ومن ثم تجد القطة تصدر صوتاً متميزاً عند المشاجرة مع غيرها من القطط ، وعند الإحساس بالخطر ، وتموء مواء معيناً عندما تنادي الذكر فيستجيب لها . . . وعلى أساس من وسائل التفاهم تصدر الأبقار خوارها والذئاب عواءها وتضورها وتلعلعها ، والكلاب نباحها وضغاءها ووقوقها وهديرها ، والشياه ثغاءها ، والأسود زئيرها ، والبغال شحيحها ، والحمير نهيقها ، والحمام هديره والحيات فحيحها وكشيشها وحفيفها ، والغربان نعيقها ، والضفادع نقيقها . . . « ولقد قام العالم الألمانى د . فرايتاج ببحث حول لغة الأسماك فنجح فى تسجيل أحاديث مختلفة لها .»(٢)

---

(١) كمال الملاخ ، « من غير عنوان » ، الأهرام ، (٢٦ فبراير سنة ١٩٧٦) .
(٢) نفس المرجع (١٩٧٦) .

وهناك من وسائل التعبير بين الطيور والحيوانات ما لا يقوم على أصوات بل يؤدى وظيفته بالحركة أو اللمس أو الشم أو نحو ذلك . فقد أثبتت الدراسات التى قام بها « فون فريتش» الألمانى وغيره من العلماء على لغة النحل أن النحلة عن طريق الرقص أو التحرك فى دوائر ضيقة متتالية بكيفية معينة أو التحرك فى اتجاه عمودى بصورة خاصة أو ما شابه ذلك؛ تستطيع أن تنقل إلى زميلاتها المعلومات التى حصلت عليها خارج الخلية بمنتهى الدقة كأن تخبرهم بنوع الغذاء الذى عثرت عليه ومكانه ومدى بعده عن الخلية واتجاه السير نحوه وهكـــذا(١).

وإشارة إلى هذه اللغة المنسوبة لغير الإنسان يقول القرآن الكريم« وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير » . ولو لم يكن للطير لغة مفهومة بين أفراد أنواعه ما استطاع سليمان عليه السلام أن يتفاهم مع الهدهد بما يدل عليه السياق الذى حكاه القرآن فى سورة النمل حيث يقول : «فمكث(٢) غير بعيد ، فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون» إلى أن قال : « قال(٣) سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين. اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون» . وبوساطة اللغة التى يتفاهم بها النمل « قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » ، وفهم سليمان عليـــه السلام ما تعنيه النملـــة بقولها « فتبسم ضاحكاً من قولها ». وربما كان قريباً من معنى اللغة الخاصة بغير

---

(١) محمد رشـــاد الطوبى ، طبائع النحل ، المكتبة الثقافية ، (أول فبراير ١٩٦٤) ، ص ص ٦٧ — ٧٧

(٢) يعنى الهدهد .

(٣) أى سليمان عليه السلام .

الإنسان قوله تعالى : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

وإذا انتقلنا إلى لغة الإنسان نجده قد تعارف على أنها العبارة التى يكشف بها المتكلم عن نفسه ويوضح بها مقصوده ، وهى تتميز بالمقاطع والحروف والكلمات والجمل ذات التركيب الخاص ، ولكن الدلائل تدل على أنها لم تكن على هذه الصورة يوم نشأت ، وذلك إذا تابعنا ما يقول علماء الاجتماع من أن القبائل البدائية التى تعيش فى الوقت الحاضر ممثلة إلى حد ما أطوار البشرية الأولى أو قريباً منها نظراً لبعدها عن تيارات الحضارة التى اجتاحت الشعوب ، وأن الطفل فى تطوره ونموه من المهد حتى يصير رجلا سوياً يمثل الأطوار والمراحل التى مر بها الإنسان منذ فجر التاريخ حتى الوقت الحاضر . وإذاً فلغة الإنسان الأولى قد بدأت بتلك النماذج اللغوية التى تسود فى تلك القبائل والتى يبتدىء بها الطفل حياته اللغوية . وقد وجد أن بعض قبائل الهنود الحمر وهم سكان أمريكا الأصليون وبعض قبائل سكان استراليا الأصليين وكذلك عشائر أفريقيا الوسطى يستخدمون فى تفاهمهم وقضاء مصالحهم والتعبير عن أنفسهم لغة الإشارة ولا يكادون يستعملون غيرها . وروى عن قبائل الهنود الحمر أنه نظراً لتباين لهجاتهم ولغاتهم قد اصطنعوا لأنفسهم لغة عامة يفهمها جميعهم هى لغة الإشارة التى مهروا فى استخدامها إلى حد بعيد حتى إن الواحد منهم يقضى النهار كله متفاهماً بها مع زملائه ناقلاً إليهم كل ما يريد أن ينقله من أفكار وحوادث (١) ، كما أن الطفل لا يبدأ لغته بالكلام المعروف ذى المقاطع والكلمات وإنما يبدأ معرفته اللغوية بمحاكاة أصوات الطبيعة حوله والاستعانة بالإشارات الحركية .

وطبقاً لهذه النظرية فإن لغة الإنسان قد بدأت بمحاكاة أصوات الطبيعة

---

(١) على عبد الواحد وافي ، الهنود الحمر ، دار المعارف بمصر ، سلسلة اقرأ ، (مارس ١٩٥٠) ، ص ص ٢٥ — ٣٨ .

التى يعيش بين أحضانها ، فكان يسمع حفيف الشجر وخرير الماء وزمجرة الرعد فيقلد هذه الأصوات دالا بها على مصادر حدوثها. وكان تميز للحيوانات التى تعيش فى بيئته أصواتاً مختلفة فيعبر عن كل منها بالصوت الذى يحدثه، وكان يضرب فيسمع للضرب صوتاً مختلفاً عن صوت الكسر فلا يرى أبلغ فى الدلالة على هذا وذاك مما يسمع لها من أصوات وهكذا . وقد استعان فى بداية حياته اللغوية بالإشارات المفهمة جبراً لما يرى فى لغته الصوتية من نقص أو دلالة مستقلة على ما لا يسعف الصوت فى الدلالة عليه لعدم وجوده مثلا . ثم تدرج الارتقاء اللغوى شيئاً فشيئاً يساير اتساع العمران وتعدد مظاهر الحضارة وارتقاء مستوى الرقى العقلى ومستعيناً بما زود به الإنسان من تركيب و بناء فسيولوجى يقدره على التلفظ بالمقاطع والحروف حتى وصلت فى تطورها إلى هذا اللون اللغوى الذى نعرفه والذى يختص به الإنسان ولا ينازعه فيه منازع . وقد قال بهذا الرأى كثير من علماء اللغة المحدثين والقدامى، منهم وتنى whitney وغيره ، ومال إليه ابن جنى فى كتابه الخصائص .

هذا وهناك ثلاث نظريات أخرى فى نشأة اللغة : أولاها تعزو النشأة إلى الإلهام الإلهى ، وثانيتها ترجعها إلى المواضعة والاتفاق وارتجال الألفاظ ، ومن هؤلاء ابن سنان الخفاجى فى كتابه سر البلاغة حيث قال فى صفحة ٤٦ — ٤٧ « إن أصل اللغة مواضعة لا توقيف »، وثالثتها تميل إلى أن الفضل فى نشأتها هى الغريزة الخاصة التى زود بها جميع أفراد النوع الإنسانى مما يقدره على التعبير عن كل مدرك حسى أو معنوى بكلمة خاصة به.

ولم تحتفظ اللغة الإنسانية فى تطورها بالوحدة التى بدأت بها ولكنها انشعبت إلى لغات متعددة ولهجات متباينة رجعها بعض العلماء إلى ثلاث فصائل ، الأولى فصيلة اللغة الهندية—الأوربية ، ومنها اللغة الفارسية والإنجليزية والفرنسية . والثانية فصيلة اللغات السامية — الحامية ، ومنها اللغة العربية واللغة العبرية ،

والثالثة فصيلة اللغات الطورانية ومنها – على ما قيل – اللغة التركية . ويرجع السبب فى هذا الانشعاب والاختلاف إلى عوامل ثلاثة :

١ – البيئات المختلفة التى عاشت لغة الإنسان فيها .

٢ – المساحات الشاسعة التى انتشرت بين ربوعها .

٣ – الجماعات العديدة التى تحدثت بها(١) .

وظائف اللغة للفرد والجماعة

قبل أن نتكلم عن وظائف اللغة ينبغى أن نشير إلى الحقيقتين التاليتين :

أولاً : عندما نتحدث عن وظائف اللغة فإنما نعنى لغة الإنسان فى مظهرها الحضارى الذى انتهت به الآن فى سلم التطور والرقى ، وذلك لأن لغة الحيوان والطير ليست من التعقيد بحيث تستدعى الحديث عن وظائفها ، فهى لا تعدو أن تؤدى وظيفة واحدة هى التفاهم بين أفراد الفصيلة والتعبير عن الانفعالات التى تعترى هؤلاء الأفراد .

ثانياً : لا نحاول عند الحديث عن وظائف اللغة التفرقة بين اللغة المكتوبة والمنطوقة والمسموعة ، وإنما نذكر الوظائف للغة بهذه الاعتبارات الثلاثة بغض النظر عن أن وظيفة بعينها تؤديها اللغة باعتبار خاص .

وبهذا الاعتبار المتقدم تتلخص وظائف اللغة فيما يأتى :

١ – تخرج بالفكرة من ذهن صاحبها حيث كانت خافية مستترة ، إلى عالم الحس والإدراك الخارجى فتترجمها فى صورة بارزة ذات كيان ومعالم . فالإنسان تخطر بذهنه فكرة من الأفكار التى يوحى بها مظهر من مظاهر الحياة أو يحركها

---

(١) على عبد الواحد وافى ، نشأة اللغة عند الانسان والطفل ، دار الفكر العربى ، ١٩٤٧ ، ص ص ٢٢ – ٣٤ .

مؤثر من مؤثرات البيئة فتظل كامنة خفية حتى يصوغها صاحبها و يرتب عناصرها فى كلمات وجمل وينطق بها شفاهاً أو يدونها رموزاً ، وحينئذ تتضح أبعادها وتتحدد معالمها الدالة عليها فتعرف عنه . وبهذا يتمكن الفرد من أن يسأل غيره ، ويجيب عن سؤاله ، ويصدر الأحكام المختلفة ، ويعبر عن أحزانه وآلامه ، ويصور مشاعره واتجاهاته الفكرية والاقتصادية والدينية وما إلى ذلك .

٢ — تفتح أمام الإنسان صفحة أفكاره فيستريح لأنه أطلق مكتوماً يطلب الإفراج عنه وأبان عن نفسه أمام نفسه وأمام الآخرين. فالفرد إذا عنت له حاجة من الحاجات ، ولتكن كتابة موضوع سياسى ينشر على الناس فإنه يقرأ حول هذا الموضوع مثلاً ، ويناقش غيره فيه ليستطلع الآراء المختلفة فتتكون لديه الأفكار التى تظل حبيسة ذهنه قلقة متأرجحة حتى تتاح له الفرصة فيجلس إلى مكتبه وينفث تلك الأفكار عبارات مكتوبة ذات أسلوب خاص فيشعر بالراحة النفسية والمتعة الشخصية ، لأنه أشبع حاجته واطمأن إلى وضع الصورة الفكرية التى كانت تملأ ذهنه دون تحديد محسوس. وفوق ذلك فإن انفتاح صفحة الأفكار وتجسدها أمام صاحبها ييسر له استرجاعها والإمعان فيها وتقليب وجوهها المختلفة بما يسمح بتعديلها وتجويدها كلما نظر إلى الرموز التى تصورها فاستوحاها أبعاد هذا التعديل وذلك التجويد .

٣ — تقف الإنسان على أفكار غيره من الناس وتصله بمكنونات نفوسهم ونتائج أعمالهم ، ومن ثم :

(ا) يستمتع بما يعرفه عن الآخرين إن كان يتلاءم وطبيعة ما يهواه و يميل إليه ، كأن يستمع إلى قصيدة شعرية تعجبه معانيها و يستلذ أخيلتها وما تتضمن من صور بلاغية .

(ب) ينتفع بما سبق به غيره فى التكيف لمطالب الحياة أو التزود بجديد من العناصر الثقافية . فالإنسان يقرأ الكتب و يستمع إلى الناس فى أحاديثهم

العادية ومحاضراتهم العامة والخاصة ليضيف إلى قيمه ومثله ومفاهيمه وليستزيد معرفة تعينه على مواجهة حياة العمل والكفاح . والتلميذ يأخذ عن مدرسه بطريق اللغة ما انفرد به من أفكار ومعلومات يستخدمها حين يباشر مهام العمل أو الوظيفة التى يسندها إليه المجتمع . والأطفال يتعلمون بوساطة اللغة عن آبائهم عادات المجتمع المرغوب فيها والمهارات العديدة التى ينبغى لهم أن يكتسبوها ، وهكذا .

(جـ) يكون مع غيره من أفراد مجتمعه وحدة ثقافية تجمع بينهم وتوجه سلوكهم وتوحد مشاعرهم وأهدافهم فى داخل الوطن وخارجه ، وذلك عن طريق تبادل الآراء والأفكار لفظاً وكتابة ، ومن ثم يترابطون وتقوى بينهم الصلات ، ويزداد تماسكهم الاجتماعى . فلولا اللغة لكان من الممكن أن ينعزل الناس بعضهم عن بعض ، ويتجه كل فرد إلى ما يعنيه هو ويحقق نفعه ؛ لأنه لا يعرف عن الآخرين شيئاً ولا يحس بحاجاتهم ومآربهم فى الحياة . وبهذا تتعارض الرغبات ، وتتضارب ألوان السلوك ، وتنهار المصالح الاجتماعية ، وتتفكك الروابط الإنسانية ، ويتعذر قيام المجتمعات ، وتغور الغوائل الثقافات ومنابع الحضارة فى الأوطان .

(د) يتصل بالتراث البشرى والحضارات الإنسانية عبر الأمم والعصور ، فباللغة تأخذ أمة عن غيرها معارفها ومعلوماتها ونتائج أفكارها وبحوثها ، وباللغة كذلك ينتقل تراث الأمة الواحدة الفكرى عبر أجيالها المتعاقبة . وبذا يستكمل اللاحق ما بناه السابق أو يعدل فيه ويحسنه فيسير التطور الحضارى مساره الطبيعى ويتدرج العالم فى سلم الارتقاء ؛ إذ لو لم تكن للإنسان هذه الوسيلة التى تسجل آماله وآلامه وتصور بنات أفكاره لكان من المستحيل أن تتعثر خطوات تطوره وتقف معالم نهضته دون هذا المظهر الذى نراه اليوم بكثير جداً .

٤ ــ تحقق للأفكار والمعارف كياناً متميزاً حين تضعها فى تلك القوالب اللغوية المتميزة ، ومن ثم تكتسب القيمة فى نظر الفرد والجماعة . فالفكرة وهى فى عالم الغيب لا يحس بها غير صاحبها ، بل ربما لايحس بها صاحبها الإحساس الكامل ، فمن الطبيعى إذاً ألا يقدرها فى هذه الحال أحد أو يستشعر قيمتها ، مثلها مثل الوردة التى إن لم تتفتح أكمامها وتتشكل أوراقها ويضُع عبيرها فإن إنساناً لا يحس بجمالها أو يقدر مكانتها فى عالم الوجود .

فاللغة من حيث هى أداة لإبراز الفكرة وإعلان ميلادها تصنع الوجود ، لأن كل شىء فيه أساسه الفكرة . وكلما ارتقت الأفكار نهض الوجود وارتقى جانبه ومسته يد صناع بالبناء السوى والعمـــل المتحضر ، وليس من شك فى أن نظام العالم وما فيه من إبداع وإتقان يقوم أساساً على مفكر يطرح فى الوجود فكرته باللغة ، ومنفذ يتلقف تلك الفكرة بما يعرف من اللغة أيضاً فيصوغها عمـــلاً وسلوكاً ومنهجاً للحياة ، وإذا لم يكن كل مفكر بالضرورة مقتـــدراً على تنفيذ فكرته وكل منفذ بالضرورة مستطيعاً صياغة المادة الفكرية التى ينهض بها عمله ؛ ما كان هناك بناء حضارى ، فنحن إذاً فى بناء العالم وصنع المجتمعات ونسج معالم الحضارة محتاجون إلى أداة للأفكار تبرز بها كى تصاغ فى أتون التطور مثالاً جديداً .

٥ ــ ترتقى بالقدرة العقلية أو الذكاء لدى الإنسان حيث الطفل يولد ذا مقدرة عقلية محدودة فيتفاعل مع عناصر البيئة التى تحيط به ويتعلم الكثير مما يحتاج إليه فى حياته عن أمه وأبيه وإخوته ومدرسته متخذاً اللغة سماعاً ونطقاً وكتابة خير معتمد له فى ذلك . ومن ثم يكبر عقله وتزداد قدرته على التصرف فى المواقف التى تواجهه وتتفتح أمامه سبل التفكير السليم فى حل المشاكل التى تعترضه وإدراك العلاقات التى تربط بين الأشياء . وقد يقال إن القدرة العقلية فطرية لا دخل للاكتساب فيها فكيف تعمل اللغة ــ وهى مكتسبة ــ على ارتقائها ؟ وجوابنا عن هذا السؤال أنه إذا غضضنا الطرف عمن يرى من علماء

النفس أن الذكاء أو جزءاً كبيراً منه اكتسابي ؛ فإنه واقعاً و بلا شك يزداد كيفاً بفعل العوامل الاكتسابية الأخرى ومنها اللغة إذا واتتها ظروف التأثير الجيد ؛ بدليل أن الشاب يؤدى بنجاح من اختبارات الذكاء ما يعجز عنه طفلا ، وبدليل أن نسبة ذكاء الصم والبكم وجدت أقل منها فى العاديين. فالثابت « أن القدرة على تحصيل اللغة واستعمالها استعمالاً ناجحاً يرتبط ارتباطاً شديداً بالذكاء » (١). ولقد دلت الدراسات التجريبية الحديثة أن التعليم المبكر — واعتماده الأول على اكتساب المعارف والخبرات عن طريق الاحتكاك اللغوى — يرتفع بنسبة الذكاء لدى الأطفال الأسوياء كما أنه ينهض بمستوى المتأخرين عقلياً (٢).

٦ — بما تصور الأفكار تصويراً مبدعاً ، وتوضح المعانى فى القوالب الفنية من الألفاظ والعبارات فتأخذ بالألباب وتؤثر فى الناس التأثير الذى يقصده مصورها ، فيقود بها إلى رأى أو يخضع لاتجاه أو يحقق هدفاً ، وما الثورات فى أساسها إلا حصائل التأثير والتأثر اللغوى بما يخطب به مفوه أو ينشده شاعر أو ينشره فى الناس كاتب محبوك العبارة ملىء المقالة بالأحاسيس والانفعالات ولواعج الأشجان ، أو حتى بما يذاكره الناس من حديث يحرك العواطف أو يتناقلوه من رسائل ونشرات تثير فيهم بأسلوبها الجيد حب التضحية والتفانى فى سبيل خدمة مبدأ أو تغيير وجه من وجوه الحياة البغيضة .

٧ — يعتمد عليها المجتمع فى تحقيق أهدافه وإنجاح مراميه واتجاهاته سياسية واجتماعية واقتصادية. وهذا هو المجتمع العربى يحكى تاريخه صوراً من النضال اللغوى الذى كان له دور فعال فى تقرير أهدافه وبلورتها فى أذهان العامة حتى آمنوا بها واستلذوا فى سبيلها التعذيب والتشريد بل الموت والفناء .

---

(١) عبد العزيز القوصى ، وآخرون ، **اللغة والفكر** ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ١٩٤٨ ص ٧

(٢) Paul A. Witty, "Studies of Bearly learning : Their Nature and Significance. *Education*. Vol. 89, (September-October, 1968), pp. 4 - 10.

ولقد سجل التاريخ لجمال الدين الأفغانى فعل السحر فى إلهاب نفوس تلاميذه وبث روح الوطنية فيهم والثورة على الظلم والظالمين بما كان يقوله لهم فى دروسه ويحدثهم به فى لقاءاته معهم، وكذلك فعل مع مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وأحمد لطفى السيد وغيرهم من أرباب اللسان والقلم الذين جاهدوا بالأداة اللغوية قبل أى أداة أخرى فى سبيل انتصار الحق الوطنى وتحقيق أهداف الأمة.

والمجتمع العربى الناشىء اليوم ينتفض انتفاضة العزة ويتهيأ لتبوء مكان مرموق تحت الشمس بما يستهدف من أهداف نابعة من حياته الجديدة التى تحول إليها . فهو يستهدف الوحدة العربية ، وليست هذه الوحدة شعاراً يكفى العرب ترديده وإنما هى سلوك وعمل ذو هدف واحد وثقل موحد فى اتجاه لا يختلف فيه مواطن عن مواطن ، ومن ثم يحتاج إلى بيان وشرح ، ويقتضى من الطليعة الذين ينادون به أن يملئوا بميزاته وقيمه رءوس عامة الناس فى أنحاء الوطن العربى الكبير ، يحتاج إلى التذكير بماضى العرب يوم كانوا أمة واحدة يخشى بأسها كل طامع وتختال هى بقوتها وبأسها الشديد ، يحتاج إلى توعية وهدى أساسهما اللغة بفنيتها الخطابية والشعرية والكتابية ليكون ذلك كله سناد الإيمان بوحدة العرب . وإنه لحق أن يظهر أول الطريق وتستبين مواقع الخطا نحو تحقيق هذه الغاية بالترديد والإفاضة الكلامية فى مختلف المواقف .

وهو يستهدف التصنيع واستخراج كنوز الأرض من باطنها ليغنى ويسعد أعضاءه، وليس ذلك بالتمنى وإطلاق البخور كما يفعل السحرة والمشعوذون وإنما هو علم يعلم وقوانين ونظريات وأبحاث وضعها وأجراها أهل الخبرة والمعرفة وسبقت بها الأمم الناهضة وتحتاج إلى إيضاح وتفسير ، وعلينا إذاً أن نركب متن اللغة لندرك كنه هذا العلم ونكشف عن أبعاد هذه القوانين وتلك النظريات ونستقى من هاتيك البحوث والتجارب . ولست بذلك أغض الطرف عن كثير من مقومات النجاح الأخرى فى هذا الميدان ولكنى أقول : إن مفتاح هذا النجاح على الأقل

أستاذ يشافه من يعلمه بلفظه وحديثه ، ومؤلف يعطى سره لمن يقرؤه ، ونشرات ودوريات تبوح بما تخفى وتظهر ما تبطن لمن يعرف اللغة التى كتبت بها .

وهو يستهدف تجنيد العلم لخدمة المجتمع أولا ، وذلك يقتضى أن تجمع المشاكل الاجتماعية لتصهر فى بوتقة التجريب ، ويقتضى تجهيز النظريات العلمية ونتائج البحوث التى تعين على حل هذه المشاكل وتعبد الطريق أمام سواء المجتمع وتخليصه من رواسب التخلف والجمود . وليس من شك فى أن هذا كله يضيع هباء إن لم تكن هناك لغة ؛ إذ بها — كتابة أو مشافهة — تجمع المعلومات المتعلقة بمشاكل المجتمع ، وبها — قراءة وكتابة ومشافهة — تجهز النظريات وتطبق النتائج وتختبر صحة الحلول . ثم أليس العلم بمعلم وكتاب ، ثم متعلم فى أمس الحاجة إلى أن يعرف لغة هذا المعلم وذلك الكتاب ؟ !

وهو يستهدف الإيمان بالقيم الروحية دوافع للسلوك الطيب وبانية للحياة الكريمة ومعالم الطريق نحو هداية الإنسان وإضاءة حياته الخلاقة ومنحه الرفعة وخير الغايات والمقاصد . وذلك لا شك يقتضى أول ما يقتضى تفهم روح الأديان السماوية وما تدعو إليه من فضائل وتحث على اعتناقه من مبادىء ومثل عليا . واللغة فى هذا عماد لا يستغنى عنه ؛ فبها تقرأ الكتب المقدسة وأحاديث الرسل الكرام ، وعن طريقها يتناقل الناس أخبارهم ، وبينهم متعلمهم من معلمهم حقائق الأديان وأنها فى جوهرها ثورات على طريق الشرف الإنسانى وسعادة دنياه وآخرته . إن اللغة سواء أكانت منطوقة أم مكتوبة من أقوى الوسائل إلى دحض الضلال فى التأويلات الدينية الفاسدة التى تراد لخدمة الأغراض الشخصية أو الرجعية ورد الاعتبار إلى الدين من حيث هو بكل ما جاء به قيمة تخدم الصالح الإنسانى العام ولا تحيد أبداً عن إسعاد البشر كل البشر فى كل وقت وفى كل مكان . وحينئذ يتعلق الناس بالدين السماوى والقيم الروحية هداية لهم وملجأ الأمان من الشرور .

وهو يستهدف قدسية العمل حيث العمل لم يعد فى الوقت الحاضر — أو هكذا ينبغى ألا يعود فى مجتمع يريد أن يتطور وينهض — عملا يدوياً يعتمد فقط على الملاحظات العابرة والتقليد الأعمى وإنما أصبح عملا له أسس تدرس ونظريات تمحص وتفهم فى أى مجال من مجالات الحياة سواء منها الصناعية أو الزراعية . فالصناعة اليوم ليست حرفاً يورثها السلف للخلف وإنما هى علم وفن ونظرية وتطبيق . والزراعة قد تطورت فاعتمدت على الآلة واستعانت بنتائج البحوث الزراعية فى التطبيق وأصبحت تحتاج إلى العامل الماهر المثقف والمهندس الخبير العليم . ومن ثم فالعمل بهذا المعنى محتاج إلى الثقافة والمعرفة اللذين لا يستغنيان عن الاحتكاك اللغوى حديثاً وسماعاً وقراءة وكتابة .

وهو يستهدف القيادة الجماعية والعمل التعاونى . ولهذا وذاك أصول مرعية وقواعد ينبغى أن تدرس وتوضع من أجلها المناهج الدراسية والمقررات العلمية حتى يتحقق لمجتمعنا ما يصبو إليه من اعتزاز وارتفاع . إذ لن تسلم له نهضته بدون التضامن الصادق والبعد عن الفردية والتقاء الجميع رئيساً ومرءوساً يداً واحدة فى حمل الأمانة وضمان الدفع ودوام الإخلاص والوقوع على الكفايات فى مواقع الأعمال حتى ترسو السفين على بر الأمان والفلاح . وهل بغير اللغة — وهى صلب الدراسة وقوام القوانين وأداة الفهم والتفهيم — تقوم للقيادة الجماعية قيامة ويصلب للعمل التعاونى عود فى مجتمع بهذا التعقيد الحضارى الذى نراه ؟ !

وهو يستهدف الحياد الإيجابى والسلام العالمى والحرية السياسية والاجتماعية وتربية التفكير السليم واحترام الملكية العامة وحرية التعبير عن الفكرة والنقد البناء وعمومية التعليم والتثقيف وغير ذلك من الأهداف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تتصل بطبيعة هذا المجتمع وعناصر الحياة العربية التى تطور إليها واتخذها سبيلا حتمياً لجبر عثرته وانتشاله من تخلفه ورقدته ، ولا يخفى أن جميع هذه الأهداف تحتاج إلى اللغة عنصراً هاماً تمتطيه لتنتشر وتسكن القلوب والأفهام ويتحقق بتحققها النجاح الأكبر لمجتمع العرب العظيم .

٨ — تقضى حاجة المجتمعات المتطورة والثقافات العريضة وذيوع التعليم على أوسع نطاق . فهى عماد الإعلام إذا تقدمت وسائله ، فأصبح الناس — بعد أن كانوا يرون ويسمعون ما تنقله محطات الإرسال الأرضية — يستقبلون ما تأتى به محطات الإرسال « التلستارية » من الفضاء الخارجى ، فتتصل مشارق الأرض ومغاربها ببرامج تلفازية فى وقت إرسالها دون أن يكون لبعد المكان حساب إلا فى تقدير الوقت المناسب لإذاعة مثل هذه البرامج . وهى عماد أيضاً إذا تعددت سبل التعليم الرسمى ولم يعد مقصوراً على المدرسة بل شاركها فيه المذياع والتلفاز والمراسلات . وهى الحاجة الضرورية إذا عمقت جذور العلم والتكنولوجيا فأخرجت الإنسان من أرضه طائراً عبر الفضاء الخارجى حتى وصل إلى القمر وأصبح الآن يستعد للرحيل إلى بقية الكواكب كشفاً عن مجهولها واستثماراً لخيرها وكنوزها ، وهى وسيلة الإنسان فى اتصاله بأخيه الإنسان إذا جاوز فى الاتصال طريق الرسالة أو الهاتف أو البرق إلى وسائل أخرى تمكنه من أن يحادثه وهو هناك قاب قوسين أو أدنى من القمر . وهى ما لا يستغنى عنه أى عضو من أعضاء المجتمع مهما ازدحم بساكنيه واتسع عمرانه وانتشرت مدنه وقراه وتحضرت وجوه الحياة فيه ، غاية الأمر أن هذا وذاك يلزم اللغة أن تواكب تطور الحياة الاجتماعية وسائر النهضات العلمية الحديثة . ولعل من هذا القبيل ما نسمع به فى مجتمعنا العربى هذه الأيام من وجوب استخدام لغة الرياضيات الحديثة ، ولعل منه كذلك ما يقوم به المجمع اللغوى من محاولة إفساح صدر اللغة العربية لتقبل المصطلحات العلمية الحديثة والعمل على تداولها بشتى الطرق حتى لا تتخلف الأمة العربية عن متابعة السبق العلمى فى عصر اشتد فيه التنافس على العلم والعلماء .